أكرم الكرماء وأشجع الشجعان ؟ ومن هو الذى فتح الباب وغطى نور الشمس ؟ وارتفع فوق الناس ذكره واشتهر فوق العالم أمره ؟ حتى جاء المتنبى فبلغ بهذه المغالاة درجة نضل معها فى هذه السبيل للموازنة بين الرجال وأقدارهم ، فقد قال فى سيف الدولة :

قَتَلْتَ نُفُوسَ العِدى بالحَدِيـ ـد حَتى قَتَلْتَ بِهِنَّ الحَدِيدا
كأَنك بالفقر تبغى الغنى وبالموت فى الحرب تبغى الخلودا

وأرانا كيف يقتل الشجاع الحديد ويبلغ بذلك سدة الخلود . ورسم ممدوحيه كالبدور والشموس، وجعل همتهم فوق الهمم وبالغ حتى جعل البحر يستقى من كرمهم ، وقال فى فاتك :

أَبو الشُّجَاع أَبُو الشُّجْعَانِ قَاطِبَةً هَوْلٌ نَمَتْهُ مِن الهيْجَاء أَهْوَالُ
تملَّك الحمد حتَّى ما لمفتخر فى الحمد حاء ولا ميم ولا دال

فهل يذكر المتنبى كم ترك لسيف الدولة بعد مدحه فاتكاً ؟ ! إنه يقول إن فاتكاً تملك الحمد حتى ما لمفتخر حمدٌ ، فلم يجعل أى فرق فى هذه المدائح بين الممدوحين ، ولو جردت من عنواناتها لضللنا السبيل إلى معرفة اسم الممدوح وطبقته من الأمراء والملوك والقواد لأنه كان يعتمد فى أقواله على المبالغة والتهويل ، فيكبّر الصغير ويصغّر العظيم ، وهذا دليل على أنه كان يصدر فى ذلك عن لسانه لا عن جنانه ، فلم يكن يقوم على عاطفة ، وإنما على عقل ينصرف وفاق الغاية والهدف والطموح .

ولم يختلف عنه الشعراء الذين جاءوا بعده أو عاصروه متأثرين بأساليبه ، فقد كان السرىّ الرفاء وابن نباتة السعدى ومهيار الديلمى يمدحون كما كان يمدح فى صور قريبة من صوره يثنون على الشجاعة والكرم ، ويرسمون الوجوه الباشة والأيادى الكريمة ؛ وقد زاد بعضهم فأرسل يمدح فى تهنئة أو فرح بزواج